ذكرى الشاعر الفنان

الطبيعة فى شعر الرصافى

للأستاذ أنيس الحورانى

الطبيعة العراقية لوحة فنية رائعة ، رسمتها ريشة مفن أصيل ، صورتها فى أحسن تصوير ، و كونتها فى أبدع تكوين : زاخرة فى مفاتنها ومباهجها ؛ فى أنهارها الجارية وجداولها السارية ، فى نخيلها السامق وحقولها الخضراء ، فى مروجها الفيح وحدائقها الغناء ، فى صحرائها المترامية وهضباتها الرابضة ، فى رمالها الحمراء وحصاها المتماوج .. حيثما تولى وجهك ترى الجمال فيها هنا وهناك يتراءى لك فى ألوان شتى وأشكال مختلفة !

تحت هذه الظلال الوارفة ، وعلى جنبات هذه الشواطئ المخضلة : ترعرع شاعرنا الرصافى وشب ، فترعرع معه حبه للطبيعة وشب وإياه تعشقه لجمالها الساحر الفتان .. فراح يتملى من مفاتنها ويستلهم سرها الدفين ، فيستجلى الصور الرائعة الفريدة ، ويرسلها شعراً رقيقاً عذباً ينساب كالغدير الصافى فوق أغواف الزهر ؛ ثم تراه يطفر هنا وهناك كالبلبل الغريد ينشد ويتغرد بحرارة ونشاط !

فالرصافى إذن ابن الطبيعة البار ، ابنها الوفى الأمين الذى اعتز بوعده لها ، فخلدها فى أسمى المعانى وأرق البيان ، وكثيراً ما تراه يفزع اليها بعد إخفاق الأمانى ، ليسرى عن نفسه ، وينفس عن كربه ، فتسعفه بأروع ما عندها من ذخائر ونفائس .. فتراه عند ذاك كالرسام البارع الأصيل الذى يكتفى بألوان قليلة لرسم الصورة التى تمر أمامه ، فيخرجها للناس بإطارها الوضاء ، حيث يسكب فيها شعوره الفياض ممزوجاً بمعانى النور والظلال والتجاوب النفسى فى تذوق الجمال الفنى الذى تأتلف فيه الطبيعة إئتلافاً دقيقاً ..

هذه ناحية قيمة من شعر الرصافى تجاهلها النقاد فلم يعطوها حقها ، وذلك لابتعادهم من الاندماج فى نفسية الشاعر وتذوق شعره ؛ فهو قبل كل شئ سمير وجدانى ، وشعره مرآة نفسه المتجاوبة مع عناصر الحياة وتكوينها ، وأن أدبه أدب القوة والإبداع والخلود !

وهذه الطبيعة الراقصة فى شعره ، يمكننا أن نتلمسها فى قصائده الكثيرة منذ صباه حتى شيخوخته ، فنجدها ذات روح وثابة قوية ، روائعها الفنية ناطقة فى غير بيان . والذى جعل شاعرنا يبدع فى ذلك هو غرامه الذى لا حد له فى المحسنات اللفظية والجمال البديعى ، مما يجعلنا نقرأ قصيدته ونستعيدها مرة إثر مرة حتى نقف على أبعد مراميها فندرك سر بيانها ، وإن شعره فى كثير من الأحيان يسيل رقة وعذوبة ، ويتفجر عن ينابيع ثرة دافقة . .

استمع إليه فى قصيدة « الغروب » يقول فيها :

تزات تجر إلى الغيوب ذيولا ... صفراء تشبه عاشقاً متبولا
تهتز بين يد المغيب كأنها ... صب تململ فى الفراش عليلا
ضحكت مشارقها بوجهك بكرة ... وبكت مغاربها الدماء أصيلا

يصف الرصافى الشمس فى هذه القصيدة ، وهى تجر مطارفها بخفر وحياء ، وقد أضر بها السقم كالعاشق الوالى الذى سئم رقدة الفراش ؛ فتراه هنا وقد اكتفى بخطوط قليلة وألوان زاهية لإبداع لوحته الفنية ، ثم صورها عند الشروق ضاحكة باسمة ، وعند الأصيل مولولة جازعة تنشح بردائها الأحمر القانى الذى خضبته الدماء

وفى قصيدته « وقفة فى الروض » يقول :

ناح الحمام وغرد الشحرور ... هذا به شجن وذا مسرور
فى روضة يشجى المشوق ترقرق ... للماء فى جنباتها وخرير
ماء قد انعكس الصفاء بوجهه ... وصفاء لاح كأنه بلور

ومنها :

وتسلسلت فى الروض منه جداول
بين الزهور كأنهن سطور
حيث الغصون مع النسيم موائل
فكأنهن معاطف وخصور

تأملوا بالله ! فى خيال الشاعر البقرى الوصاف تجدوه كمن اطلع على أسرار الطبيعة وما تزخر به من حجب وتكهنات فراح يقتنص الشوارد بأدق المعانى وأرق الأحاسيس ، فيشعر بعصاب الحمام وهو ينوح من شجن وعذاب ، ويشارك الشحرور

في تغريده لفرحته ومسرته ! ثم بلغت هنا وهناك وكأنه يستشف غور الأعماق ، فيبقى سادراً في صفحة الماء الجلواء، حتى يخيل إليه أنه يرى مدى بعدها اصفائها ، وكأنها استطابت مكوثه في هذا الروض فرقت له واستسلمت إليه ، فكشفت له عن كنهها وخبايا صدرها من جمال وروعة !.

ومن هذا الوصف المتقن ما جاء في قصيدة « ذكرى لبنان » إذ يقول فيها :

برزت تميس كخطرة النشوان ... هيفاء مخجلة غصون البان
ومشت فخف بها الصبا فتمايلت ... مرحاً فأجهد خصرها الردفان
جال الوشاح على معاطفها التي ... قعدت وقام بصدرها النهدان
تستعبد الحر الأبي بمقلة ... دب الفتور بجفنها الوسنان

ومنها :

لم أنس في قلبي صعود غرامها ... إذ نحن نصعد في ربى لبنان
حيث الرياض بهز عطف غصونها ... شدو الطيور بأطرب الألحان
لبنان تفعل بالحياة جنانه ... فعل الزلال بغلة الظمآن

نراه هنا يتمشى مع الطبيعة جنباً إلى جنب ، فيعطيها نصيبها الوافر من الإبداع والتشبيه ، مع خيال شعري سليم ، وموسيقى شجية هامسة ، ليس فيها أي تكلف مصطنع ، بل جاءت فريدة من صميم نفسه الشاعرة المرهفة . .

وقوله لاستغلال مادة الطبيعة في بساطة ساحرة :

البحر رهو والسما صافيه ... والفحت في الليل شبيه الصديم
والبدر في طلعته الزاهيه ... قد ضاحك البحر بثغر بسيم

* * *

والصمت في الأنحاء قد حيما ... فالليل لم يسمع ولم ينطق
والبدر في مفرق هام السما ... تحسبه التاج على المفرق
أفرق في أنواره الأنجما ... وبعضها عام فلم يفرق
والبحر في جبهته الصافيه ... قام طريق للسنا مستقيم
لم تخف في أثنائه خافيه ... حتى ترى منه اهتزاز النسيم

تلك هي قصيدته « محاسن الطبيعة » التي أجاد في صياغتها وتوشيحها ، فكانت طرفة خالدة من طرائفه الفنية النفيسة ! . يصف فيها سكون البحر وهدوءه ، والليل وصمته ، تظللهما سماء جلواء صاحية الأديم ؛ وقد وثب القمر في طلعة مشرقة وضاءة ، ليذاهب البحر في فرحة ومسرة ، وكأنه تاج من سنى الضياء ، على مفرق السماء ! .

وقوله :

انظر إلى تلك المعلقة التي ... سترت ظلام الليل بالأضواء
قطع من البلور محدقة بها ... يحكين شكل أصابع الحسناء
فكأنها بدر تلألأ في الدجى ... وكأنهن كواكب الجوزاء
بل قد يمثلها الخيال كأنها ... قمر أحيط بهالة بيضاء

قال هذه الأبيات مرتجلا في « معلقة » وقد برع في وصفها بجنحاً الى آفاق رحيبة من الخيال المطلق . والذي نتلمسه الآن في شعره هو أن الطابع الوصفي يغلب على شعره في الطبيعة والذي يصاحبه الجرس واللون والخيال المجنح ؛ وقد يمتزج أحياناً بفلسفة الحياة والعاطفة والوجدان

ونراه بعد حين يرتد طرفه عن مباهج الحياة وزخارفها ، ليرى وطنه وقد امتدت به أيدي الحدثان ، وارتفعت في أرجائه سياط الطغيان ، فأنشد يقول ودمعه لا يرقأ :

نظرت إلى عرض البلاد وطولها ... فما راقني عرض هناك ولا طول
ولم يبد لي فيها مشاهد عزها ... ولكن رسوم رثة وطلول
أأمنع عيني أن تجود بدمعها ... على وطني إني إذن لبخيل

لنشاركه في هذه النظرة التي ألقاها على البلاد ، حيث تتجلى فيها دقة الحس وفيض الشعور ، لنرى وإياه بعين المتألم الخبير « فما راقني » يالله العجب ! . تلك البلاد التي استهوته بجمالها ، وأسرته بمفاتنها ، يعود فيراها على صورة غير التي كان يعهدها منذ قبل . . « ولكن رسوم رثة وطلول » ، وكأننا نحس ونشعر بما يرمي إليه الشاعر ، فيضرمنا الألم ويحز في نفوسنا ، فنشاركه دموع الحزن والأسى لما أصاب الوطن الجميل . . ثم ماذا ؟ ! « إني إذن لبخيل » ، وهنا تتم اللوحة التصويرية في أجل معانيها وأنبل غاياتها ، فتدفع بالروح المتطلعة الى أبعد حدود الذات ، الى الانطلاق الحر ، الى ثورة النفس الصاخبة التي يرمي اليها الشاعر في هذا الهمس البسيط يبقى من وراء ذلك تحطيم القيود وهدم السدود ، وذلك صروح الغزاة المعتدين ! !

هذا هو الرصافي في شعر الطبيعة ، ذلك الشعر الذي يتراءى لنا من خلال سطوره وقدة النفس وطموحها في سبيل الاعتزاز بهذه الأرض الطيبة الساحرة الجميلة ! .

والرصافي الآن في مقدمة موكب الخالدين ، وشعره هذا سيبقى سفراً قيما للتاريخ التصويري للطبيعة العراقية !

بغداد — أنيس الحوراني